تجليات الاغتراب في شعر معروف الرصافي

الدكتور
عباس يداللهي فارساني
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها.
جامعة الشهيد چمران.الأهواز.إيران

تجليات الاغتراب في شعر معروف الرصافي

الدكتور

عباس يداللهي فارساني

أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها.

جامعة الشهيد چمران.الأهواز.إيران

ملخص البحث

يتناول البحث دراسة ظاهرة الاغتراب ومصادرها وأنماطها المختلفة في شعر الشاعر العراقي الحديث، معروف الرصافي. نشأ الشعور بالاغتراب لديه عبر الأسباب المختلفة، منها التدهور في الظروف الاجتماعية، الاقتصادية، الدينية والسياسية في المجتمع العراقي. اعتمد الباحث في إعداد هذا البحث علي المنهج الوصفي التحليلي للعثور علي الأنماط المختلفة للاغتراب معتمداً علي المصادر الأدبية الحديثة خاصة ديوانه الشعري.تبين للباحث من خلال إمعان النظر في الديوان تلك الأنماط المختلفة للاغتراب من الاجتماعي والمكاني والروحي والسياسي والاقتصادي نتيجة ما ألمّ بالمجتمع العراقي من ويلات وأزمات.أخيراً خلص البحث إلي أنّ الاحتلال والتدهور العامّ وما رافقهما من نكبات وثورات وفتن من أهمّ الأسباب التي أسهمت أعظم إسهام في تكوين الاغتراب لدي الشاعر، فجاء شعره معبّراً عن معني الغربة والضياع.
الكلمات المفتاحية:الاغتراب، الشعر العراقي الحديث، الاحتلال، الشعور بالضياع والعدم.

المقدمة

تعدّ ظاهرة الغربة من الظواهر الاجتماعية التي عرفها الإنسان مذ وطأ الأرض ومازالت ترافقه حتي يومنا هذا. وهي من الملامح الفكرية والنفسية

التي تتميز من إنسان إلي إنسان آخر وفق المصادر والمسببات. فإذا حاولنا الكشف عن جذور هذه الظاهرة في الأدب العربيّ نري أنّها كمنت في مطالع القصيدة الجاهليّة عقب الحنين إلي الأوطان ووصف الأطلال والدمن والوقوف عليها والبكاء علي رسومها المندرسة. فعاني الشعراء من ويلاتها وذاقوا من ينابيع مرارتها. يُعدّ الملك الضّلّيل من الشّعراء الجاهليّين الذي أكثر من تَرداد الاغتراب في شعره قائلاً:

أ جارتَنا،إنّ المزار قريبُ و إنّي مقيمٌ ما أقام عسيبُ
أ جارتَنا، إنّا غريبانِ ههنا، و كلُّ غريبٍ للغريب نسيبُ(١)

تفاقمت هذه الظاهرة في الأدب الحديث إثر العوامل والأسباب المختلفة التي سوف يشار إليها في أثناء البحث إذ حاول الشاعر الحديث خلال الأسطر الشعرية التعبير بصورة صادقة عن الآلام والأوجاع الإنسانية ومعاناة الإنسان اليومي في شتي المستويات كالثقافة والاجتماع والسياسة والاقتصاد والدين وتراوحت ردود فعله بين الانسحاب من الواقع المحيط به أو الرضوخ للقوانين والأسس القائمة به. في خضم هذه الأحداث، لم يكن الأدب بمنأي عن هذه الظاهرة خاصة في الأدب الحديث نظراً لما شهدته البلدان العربية من ظروف سياسية واجتماعية تعكس علي نتاجات الشعراء وصار الشعر أداة طيعة لتمثيل ما يعاني الإنسان الحديث من الغربة والتمزق والخيبة والاضطراب وكان أنيسًا ومصاحبًا للشاعر الذي فقد القيم والمبادئ مهما اختلفت وتعددت المصادر والمرجعيات. انطلاقًا من هذا الموقف، صوّر الشاعر أمامه عقبات كؤوداً وسلسلة من المصائب المحيطة بالتفاعلات النفسية والثقافية والسياسية التي تتمحور حول بؤرة واحدة وهي الشعور بالغربة والضياع وانهيار دعائم المجتمع الإنساني. إذا دققنا النظر في التقلبات السياسية والاجتماعية التي انتابت الأدب العربي الحديث نجد أصداء قوية من الاغتراب في طياته، فضلًا

عن تعقّد الحياة وسوء ظروف المجتمع مما قاد الشعراء نحو مظاهر المحاكاة،لأنّهم كانوا يتمتّعون بالرهافة والتوتّر أكثر من فئات المجتمع الأخري. من ثمّ كثر الترميز وتوظيف الأسطورة لديهم وكان الليل رمزًا للوحدة، والغراب رمزًا للعدو المحتلّ واعتزلوا المدينة وتغنّوا بالآلام والأحزان وصار الحزن أنيسًا لهم. من هنا وجد الشعراء أنفسهم في عالم جديد انهارت فيه المثل الأخلاقية والأواصر الإنسانية التي اشتاقوا إليها وقاسوا أيما مقاساة.

سابقية البحث

عالج الكتاب والباحثون شعر معروف الرصافي من زوايا وجوانب مختلفة وتمّت دراسة غير قليلة في تحليل شعره، إلاّ أنّهم لم يتطرقوا حتي الآن إلي دراسة الاغتراب، مصادره وأنماطه المختلفة في شعر الرصافي ولم تجر دراسة مستقلة قائمة بذاتها في هذا المجال.يشار إلي البحوث والدراسات التي تمّ نشرها في تحليل شعر الرصافي:

١- ظاهرة التمرّد في أدبي الرصافي والزهاوي دراسة تحليلية موازنة. سفانة داود سلوم. رسالة جامعية.جامعة بغداد.٢٠٠٧م.

٢- دراسة ملامح من حبّ الوطن في شعر معروف عبدالغني الرصافي.مصطفي شيروي خوزاني.مجلة اللغة العربية وآدابها. جامعة قم.السنة الثامنة.العدد ١٤ ١٤٣٣.

٣- المرأة في مواقف الرصافي الأدبية دراسة تحليلية.نجاة علوان الكناني.مجلة آداب البصرة.جامعة البصرة.العدد ٤٧. ٢٠٠٨م.

٤- تجليات المفارقة التصويرية بين معروف الرصافي ومهدي أخوان ثالث (دراسة مقارنة).أحمد باشا زانوس وعلي خالقي.بحوث في الأدب المقارن.جامعة رازي- كرمنشاه.السنة الرابعة.العدد ١٦. ١٣٩٣.

٥- الالتزام السياسي في شعر معروف الرصافي. منصورة زركوب ومحمودرضا توكلي محمدي.مجلة اللغة العربية وآدابها.جامعة قم.السنة الأولي.العدد ٣. ٢٠٠٦م.
٦- اللغة الفارسية وآدابها من منظور شعراء العراق (الزهاوي، والرصافي، والنجفي، والجواهري نموذجًا). مهر علي يزدان بناه.مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها.العدد ٢٢. ٢٠١٢م.

أسئلة البحث

١- ما المراد بالاغتراب في الأدب العربي من منظور اللغة والمصطلح؟
٢- ما الأسباب التي أدت إلي نشوء ظاهرة الاغتراب في الشعر العراقي الحديث بصورة عامة وشعر الرصافي بصور خاصة؟
٣- ما المصادر والأسباب لتكوين الشعور بالضياع والغربة عند الرصافي؟
٤- هل أثر المناخ الاجتماعي والسياسي في بلورة الشعور بالغربة لدي الشاعر؟
٥- كيف عوّض الرصافي عن اغترابه ونفّس عن كربته؟

أهمية البحث

تكمن أهمية البحث في تسليط الأضواء علي المعني اللغوي والاصطلاحي للاغتراب، مصادره وأنماطه المختلفة في شعر معروف الرصافي والكشف عمّا جعله يعبّر عن الشعور بالغربة والإحباط.فضلًا عن ذلك، نالت قضية الاغتراب في الأدب اهتمامًا كثيرًا في الدراسات الحديثة خاصة في مجال الكشف عن السمات الروحية والنفسية للمبدع، فأصبح غرضًا شعريا أساسيا يعبّر عن تجربة الشاعر الذاتية.

مصادر الشعور بالاغتراب عند الرصافي

قبل مناقشة قضية الاغتراب عند الشاعر لا بد لنا أن نعرض موجزًا لمعني الاغتراب من الجانب اللغوي والاصطلاحي،حتي يمكننا الدخول إلي عالم

معروف الرصافي لكونه شاعرًا مجيدًا وبارعًا في الأدب العربي الحديث.يتبين لنا من خلال إمعان النظر في ديوانه الشعري كثرة الأسباب التي ساقت الشاعر مساق التعبير عن الاغتراب، فتنوعت وتعددت مسببات الاغتراب لديه من الدين والسياسة والاجتماع والاحتلال والاقتصاد والتفاوت الطبقي وانهيار المثل الأخلاقية والثقافية في المجتمع الإنساني.

الاغتراب من منظور اللغة والمصطلح

الذي لا شك فيه أنّ مشكلة الاغتراب يعدّ في يومنا هذا من أكثر المفردات والمصطلحات تداولًا في المؤلّفات والكتابات التي تعالج مشاكل المجتمع الإنساني. لا يمكن تقديم تعريف محدد وشاف لظاهرة الغربة لأنها أمر لا يخلو من صعوبات تعاني الكثير من الغموض ومن هنا تضاربت الأقوال والمواقف، فالتعريف يبقي ههنا ناقصًا وجهدًا نسبيا. ذكر اللغويون معان شتي للاغتراب وتناولوها، منها «اغترب الرجل: نكح في الغرائب، وتزوّج إلي غير أقاربه، وفي الحديث: اغتربوا لا تضووا أي لايتزوّج الرجلُ القرابةَ القريبةَ فيجيء ولده ضاويا ﴿أي ضعيفًا دقيق العظم هزيلًا﴾ والاغتراب: افتعال من الغربة. أراد تزوّجوا إلي الغرائب من النساء غير الأقارب، فإنّه أنجب للأولاد»(٢). قدر ورد في المعجم الوسيط: «أمّا الاغتراب فهو مصدر اغترب يغتربُ من باب الافتعال وهو بمعني نزح عن الوطن واحتدّ ونَشِطَ واغترب فلان: تزوّج في غير الأقارب»(٣).

أمّا من حيث المصطلح فهو حالة من شعور الإنسان بالانعزال عن المجتمع وأبناء الدهر وعدم قدرته علي التكيف معهم وهو«تعبير عن التوتر والقلق النفسي وضياع الذات أو استشعار الخوف من فقدان الأمن والأمان والفرح والسعادة والتواصل مع الجوهر الطبيعي»(٤). من هذا المنطلق، يتداخل المعني اللغوي والاصطلاحي «ليعطي مفهومًا واحدًا وهو الابتعاد عن الناس بالجسم

أو بالفكر» (٥).فحصيلة السلوكيات التي تصدر عنها ظاهرة الغربة تتراوح بين الثورة والتمرد من أجل إصلاح الواقع المحيطة بالإنسان أو الانسحاب أو الخضوع والاستسلام.

معروف الرصافي :

يعدّ الرصافي من أبرز الشعراء العراقيين الذي لعب دوراً هامًّا وبارزًا في تطور الشعر العراقي الحديث ومواكبة الانقلابات الأدبية والفكرية المختلفة. ولد ببغداد وعاش بين عامي ١٩٤٥م- ١٨٧٥م ونشأ في الرصافة وتلقّي هناك العلوم الابتدائية وتتلمذ محمود شكري الآلوسي وعالج مهنة التعليم ونظم معظم مقطوعاته الشعرية في الثورة وإدانة الاستبداد قبل الدستور العثماني.ترعرع الشاعر في أسرة متوسطة الحال. كان أبوه من عشيرة كردية تقطن في نواحي كركوك تسمّي «الجبارة»(٦). كان جنديا متدينًا كثير الصلاة، كثير الأسفار والتنقلات في مهمات عسكرية وسياسية ولم يكد يألف البيت الزوجي وأما والدته فهي فاطمة بنت جاسم من أسرة عربية متوسطة الحال(٧). بعد فترة من الزمن ألقي عصا التسيار في الأستانة وانتقل بعد الحرب العالمية الأولي إلي دمشق وعين أستاذًا في دار المعلمين ثم عاد إلي بغداد وعين مفتشًا في المعارف وانتخب عضواً في مجلس النوّاب خمس مرّات عبر ثمانية أعوام.قام بزيارة مصر سنة ١٩٣٦م وعزم علي المقاومة والكفاح ضدّ الاحتلال البريطاني وعندما لم يحصل علي شيء سوي الخيبة والقنوط تجذّرت الغربة والعزلة في كيانه وشعر عميقًا بالضياع والإحباط.إنّ التجربة التي اكتسبها الشاعر خلال حياته هي التي عبّر عنها علي هيئة صور شعرية تدفعه بمكبوتاته إلي غياهب اللاوعي واللاشعور ابتعاداً عمّا هو مؤلم وغير مريح.

تجليات الاغتراب عند الرصافي

تبين لنا من خلال ما قيل أن الشاعر وجد في ذاته هوة عميقة وفحوة واسعة بينه و بين أبناء جنسه في المجتمع العراقي، وهذا مما أدي إلي إنكار أدبه

وغضّ الطرف عما أتي به الشاعر من المنتجات الأدبية والتطورات الفكرية.إذا أمعنا النظر في ثنايا القصائد والمقطوعات الأدبية نجد أنماطاً مختلفة من هذا الشعور الذي اعتصر نفسية الشاعر.

الاغتراب الاجتماعي

يكشف هذا النمط من الاغتراب عن الإطار الفكري والعاطفي الذي أحاط بالشاعر انطلاقًا من حضوره ضمن حيز مكاني يستشرف من خلاله آفاق المستقبل. ينمّ شعر الرصافي في هذا المجال عن التصدّع في البنية الأخلاقية والأعراف السائدة في المجتمع العراقي.يتمحور معظم شعره ههنا حول التغيير والتعديل دون مجرّد التعبير.

المراد بالاغتراب الاجتماعيّ هو انفصال الإنسان عن المجتمع أو عن الآخرين أو عن القيم والأعراف السائدة فيه أو عن النظام السّياسيّ وما يعقب ذلك من الشعور بالألم والحسرة والفراق أو بالتشاؤم والقنوط وما ينطوي عليه من سخط أو ثورة أو نقمة وتمرّد(٨). إنّ التّدهور سياسياً كان أم اجتماعيّاً أو اقتصاديّاً، كان من أهمّ الأسباب في تكوين الاغتراب في الشعر العراقي الحديث و«كان الشعراء ينظرون إلي الوضع العامّ العراقيّ والألم يعصر قلوبهم ونفوسهم فيظهر عليهم طابع الألم ظاهراً□(٩). انطلاقاً من هذا الموقف، نجد أنّ الشاعر المغترب يمتزج كلامه بالحديث عمّا يعانيه في المجتمع والأوساط الأدبية من ظلم وتعسف واستدمار وضياع وارتبط ذكره بالدعوة إلي النهوض واستنهاض الهمم من كل قيود منعت المجتمع العراقي من الرقي.

يتجسد الشعور بالاغتراب لدي الشاعر عبر مظاهر الحرمان والعزلة الناجمة عن إحساسه بأنّ أبناء المجتمع لايواكبونه فكريا وعما يستحوذ علي المجتمع من أعراف ورسوم بالية وتضليل سياسي طوّقته عصور الانحطاط

وتضارب في الآراء والمواقف. غرق المجتمع في مظاهر الترف والانحلال الخلقي فعجز عن حماية مقدساته ومواجهة الأعداء وكانت هذه الهزيمة نتيجة طبيعية لهزيمة المجتمع أخلاقيا واجتماعيا.

عبر الشاعر عن عزلته الاجتماعية وتفردّه بين الناس إذ يقول:

دأبت لنفسي في الحياة كلّها كأنّني ... من العيش مُلقي في شدوق
يخاصمني منها علي غير طائلٍ ... أناسٌ فأُبدي الصفحَ غير مخاصم
وكم لي في بغدادَ من ذي عداوة ... فلم أُلفِ إلاّ منكرين مكانتي(١٠)
كما راعني منهم تماسيحُ خسَّةٍ ... يحيدون عنّي كالوحوش النوافر
فقابلتُهم بالصفح عنهم ترفُّعًا ... تريدُ ازدرادي بالحلوق الفواغر
سأرحل عنهم عائذًا من شرورهم ... وأعرضتُ عن شتم السفيه
فيا قومنا أين المساواة عندكم ... فقد طال عنها في مواطنكم بحثي
وأين مواثيق الأُخوّة إنّني ... أري حبلها في كلّ يومٍ إلي النكث
وإنَّ بصدري للقريض لَفورةً ... يزيد بها من طول غفلتكم نفثي
أراكم فأهجو ثم أطرق ذاكرًا ... أوائلكم قبلًا فأندبُ أو أرثي(١٢)

يتبين لنا من خلال هذه المقطوعة أنّ الشاعر يحاول اجتماعيا الخروج علي العادات والنواميس الصارمة والاجتماعية السائدة خاصة فيما يتعلّق بقضايا المرأة، التعليم والتشدّد في المعتقدات والتعصب الأعمي عبر مناهضتها ومحاولة إسقاطها من أجل تحقيق الهدفين الأساسين: الانعزال وتغيير القانون الاجتماعي.يستمرّ الشاعر في التعبير عن غربته الاجتماعية ويبدو أنّه يشعر بأنّ أبناء الوطن لايقدّرونه حقّ تقديره وتضعضعت مكانته بينهم، فمن ثمّ صارت دعواته للانطلاق والثورة والتطوير مجرّد أصداء فارغة لا يكترث بها أحد ولايلتفت إليها.نراه يعبّر عن محطة القنوط العميق الذي يرافقه نوع من الضعف وانهيار القوي.

تمثّل الشاعر ههنا كالغريب المنعزل الذي يرصد اجتناب المجتمع وما يسوده من العقائد والمواقف الخطيئة لينفصل عن العامة والناس لكونهم من عوامل ضياعه وانحطاط شأنه متقوقعاً علي ذاته، فمن ثمّ يقع الاغتراب داخل شخصيته الفردية، وذلك علي الرغم من أنّ العوامل الاجتماعية يمكن أن تسببه.فجاءت أشعاره تجسيداً لنزعة ذاتية تمثّل الهمّ الشعوري للإنسان العراقي المغموم تعبيراً عن الأزمات الروحية والنفسية التي يعانيها الفرد في ظلّ هذا المجتمع.من أجل ذلك صار شعره صورة جدلية ترسم حقل التباري بين القيم الوقائعية المفروضة والقيم المنشودة.

مما لا شكّ فيه أنّ التدهور في الظروف الاجتماعية والسياسية المحيطة بالمجتمع العراقي كان من أهمّ البواعث والأسباب التي ساقت الشاعر مساق الشعور بالعزلة والضياع والانفصال عن الآخرين واختلافه عنهم وافتقاد الإحساس بالعلاقة بينهم. فنشأ الشاعر وترعرع في بيئة «سادها التأخر والانحلال نتيجة الإهمال الذي كانت تعانيه من حكامها وولاتها الذين لم يفكر واحد منهم في النهوض بها من هذه الهوة التي تردت فيها»(١٣). تنطوي هذه الأسطر الشعرية في طياتها علي تلك المعاناة النفسية التي تبدأ من غربة المدينة ومسقط الرأس للتعبير عن تضخّم الأزمة الروحية التي تمثّل ذلك الشعور المتفاقم بالغربة والحنين عبر ثيماتٍ بثّها داخل الأسطر الشعرية:مخاصمة الأعداء، الإنكار، النفور، الازدراد والتحقير، الرحلة، النكث، الغفلة، الهجاء والرثاء. يعاني الشاعر من الغربة الاجتماعية التي تمهّد السبيل لغربته المكانية والنفسية فيما بعد.

تكتظّ المدينة أو مسقط الرأس خلال شعره بتلك الصور المأساوية التي تمثل الانحطاط والقنوط واليأس من تغيير أو خلق أي إصلاح وتعديل فكري فيها وهي مشحونة بالضياع والتشتت الذي يعتمر في فكرة الشاعر وليست بغداد

بشيء سوي سجن يعجّ باللانفعية والحرمان.ساعد توظيف حركة الأفعال الماضية والمضارعة عبر خارطة النص الشعري علي إثراء دلالات الاغتراب لدي الشاعر، فهذه الأفعال تصوّر الجانب الزمني للمواقف الفكرية وتؤثّر في الكشف عن المكنونات النفسية والخلجانات الروحية.

مما يجدر بالذكر أنّ الشاعر اتّسم بالصفات الروحية والنفسية التي جعلته يعتزل عن الناس وأبناء المجتمع العراقي، منها الاعتزاز بالنفس وكانت هذه السمة النفسية وما نتج عنها من السمات «سببًا في نفور الناس عنه، إذ هو يحاسبهم في غير أناة مما يفرط منهم... وكانت هذه السمة من عوامل إخفاقه في الحياة»(١٤).

الاغتراب المكاني

المراد بالاغتراب المكاني تلك الحالة التي تنتاب الإنسان إثر انفصاله عن البيئة التي يعيشها إن راود وعايش فيها أبناء الدهر. فهذه البيئة المكتظة بالأنانية والتفرّد تزيد في إحساسه بالفردية وتخلق في كيانه أجواء تتسم بالملل والسآمة، ومن ثمّ أدي الاغتراب المكاني لديه إلي الشعور بالاغتراب النفسي فيما بعد. عندما عبّر الشاعر عن خلجاته ومكنوناته النفسية نجد علاقة وطيدة بينه وبين المكان،فإنّه حينما يفتقد المكانية يفتقد الانتماء والأصولية.

إذا أمعنا النظر في القصائد والمقطوعات الشعرية لدي الشاعر نجد أنّه يصور الوطن مثقلًا بالهموم والآلام مما اعتصر نفسه، ولم ير أمامه مهربًا سوي الشعر للتعبير عن الخلجانات الروحية والنفسية عبر تلك الأسطر الشعرية.لم يجد في الوطن المغترب ما كان يصبو إليه، بل لاقي صنوفاً من الضياع والتشرد والعذاب. تكوّن الاغتراب الاجتماعي لدي الشاعر عبر تصادم الآراء وتضارب المواقف الفكرية التي لا توافق كليا مع قيمه ومبادئه، فخلقت فجوة عميقة بينه وبين أبناء الدهر خاصة فيما تمتّ بصلة إلي القضايا الدينية

والسياسية وما واجهه الشاعر طيلة الحياة من التهم كالزندقة والإلحاد من مواطنيه، وتملّكه الحسرة والألم علي قضاء أيامه مغترباً بين مواطنيه.فجاء شعره رقيقاً يفيض ألماً وحنيناً وقنوطًا.

تصبو نفس الشاعر الطامحة إلي التجديد والرغبة في تحقيق الأفضل للمجتمع العراقي وإصلاحه، فصاح مغتربًا:

بلادٌ أناخ الذلُّ فيها بكلكلٍ ... علي كلّ مفتول السَّبالين أصيدِ
معاهدُ عنها ضلَّ سابق عزّها ... فهل هو من بعد الضلالة مهتد؟
أحاطت بها الأرزاء من كلّ جانب ... إلي أن محتها معهدًا بعد معهدِ
ويرمي بها في قعر أظلم مُوحش ... به أين تسقط جذوة الروح تُخمد
هو السجنُ ما أدراك السجنُ إنّه ... جلاد البلايا في مضيق التجلّد
بناءٌ محيطٌ بالتعاسة والشقا ... لظلم بريءٍ أو عقوبة معتدِ
زُر السجنَ في بغداد زورةَ راحمٍ ... لتشهدَ للأنكاد أفجعَ مشهدِ
محلٌّ به تهفو القلوب من الأسي ... فإن زرته فاربط علي القلب باليدِ
مربَّع سور قد أحاط بمثله ... محيط بأعلي منه شيدَ بقَرمدِ
هي الساحة النكراء فيها تلاعبت ... مخاريق ضيم تخلط الجِدَّ بالدّدِ
هناك يودّ المرءُ لو قاء نفسَه ... وأطلقها من أسرِ عيشٍ منكدِ
تضيق بها الأنفاسُ حتّي كأنّما ... علي كلّ حيزوم صفائح جلمَد(١٥)

(أناخ: أقام. الكلكل: صدر الحيوان.الأصيد: الرافع رأسه كبراً.الأرزاء: المصائب والنوائب.التعاسة:الانحطاط والعثور. القرمد:كل ما طلي به.الآجر. المخاريق: ما يلعب به الأطفال من الخرق المفتولة.الدد: اللهو واللعب.قاء فلان: تكلّف القيء وأخرج ما في فيه. التنكيد: ضنك العيش وصعوبته. الحيزوم:الصدر. الصفائح: حجارة رقاق عراض.الجلمد: الصخرة).

يتبين لنا من خلال هذه الأسطر الشعرية أنّ مسقط الرأس لديه كان بمثابة سجن ترك آثاراً سلبية علي نفسية الشاعر وجاءت ردود فعله قوية دامغة.فهو خير شاعر في الأدب العراقي حيث شغلته هموم المجتمع وما أنهضه من الرقي وأرّقه استسلام الناس للتقاليد البالية التي لا تفيدهم شيئًا سوي التقهقر والتخلف. نراه يثور و يرفض كل ما ساد المجتمع العراقي من قيم زائفة وظلم وقهر.لاحظنا أنّ الشاعر يرفض المدينة وما سادها من عادات وتقاليد ويدين زيفها، إلي جانب ذلك يحاول استعادة التوازن من أجل مواجهة الإحباطات والعذابات التي رنّقت عيشه.

انطلاقاً من هذا الموقف، ينطوي شعره علي تلك الحالة التي يعانيها من رفض وغربة وانفصال حيث يمثّلها خير تمثيل وقد حاول الشاعر من خلال الاغتراب بكافة المستويات تحقيق التأقلم والتوازن الاجتماعي، لأنّ «الثورة والرفض ليست سوي اصطدام بالنقائض التي يعاني منها المجتمع، وليست محاولة لتحطيمه، وإنما هي محاولة لتنبيهه أو إيقاظه أو تطويره»(١٦).

الأمر الذي لا شكّ أنّ اغتراب الشاعر كان نتيجة مباشرة لما لاقاه من اصطدام عنيف مع واقعه الخارجي وعجزه عن الانسجام والتواصل معه، ونشأ من خلال هذا التصادم والتضارب شعوره العميق بالاغتراب والضياع، وزادت المسافة بينه وبين أبناء المجتمع، لأنّ كل ما يربطه بهم هو المصالح وليس المبادئ والقيم الإنسانية السامية التي انطمست تحت وطأة المادية والقسر.

إنّ المعمن في الأسطر الشعرية المذكور أعلاها يجد أنّ شعوره بالغربة والانعزال أدّي إلي الثورة والنقمة علي تلك الظروف التعسة والمتردية التي أصابت المجتمع العراقي وكان يتفجّع علي تلك الأحوال التي غدت تكبّل الوطن من النهوض والرقي. ومن ثمّ كان شعره يصوّر نكبة ذلك الشعب وضيق حاله وعدم جدوي للحياة تحت ستار صفيق من الفوضي والتدهور

والركود. يجد الشاعر المغترب فجوة عميقة بين ما يتوقعه وترقبه وبين الواقع المرير والمكتظ بالألم والحرمان. ومن هنا يجد في عالمه الخارجي بديلاً عن العالم الموجود ملتجئًا إلي ذلك الفردوس المفقود.

الاغتراب الروحي

المراد بالاغتراب الوجودي أو الروحي ذلك الانفصال والابتعاد عن القيم والمبادئ الروحية والدينية التي تجذّرت في كيان الإنسان وفي معظم الأحيان يخلق هذا الانعزال نمطًا من أنماط التمرد والرفض والثورة تجاه هذه القيم. تنشأ هذه الحالة الروحية عبر البواعث والأسباب المختلفة خاصة فيما يتعلق بقضية الموت والنشور وهي من أهمّ مظاهر الغربة الميتافيزيقية عند الإنسان و«الإنسان المغترب علي الصعيد الميتافيزيقي هو الإنسان الذي يفتقد فهم أمرين هامين يتعلقان بالوجود الإنساني: هما معني الحياة والغاية من الحياة»(١٧).

يستشفّ من خلال القصائد والمجموعات الشعرية للرصافي أنّه عاجر عن حلّ لغز الوجود وقد حاول تفسير الكون ومجاهله حسب العقل الإنساني، وصارت الحيرة واللاأدرية سيدة الموقف لديه في المستوي الروحي وجاء تائهاً متحيراً في سرّ الوجود وغوامضه ووجد نفسه محبوساً في دائرة الجهل والغربة وشعر بحتمية الموت ووطأته المثقلة وأحسّ بدبيب الذبول فوق أشلائه الفاترة. دفعه اغترابه عما حوله إلي التساؤل الملحّ لعلّ هذا الأمر يخفّف من عزلته.

وقف الشاعر متردداً في مجاهل الوجود، واكتنفته الظلمة وحاول من خلالها أن يجد طريقاً واضحاً يسلط الأضواء علي أسئلة تركت بسمات واضحة من الغربة والخيبة في كيانه «حتي يريح وجدانه لكن دون جدوي، فقد ظلّت المأساوية الوجودية تلفّه من كل جانب، وبقيت نفس الشاعر موزّعة من

متاهات الألغاز الخالدة، في سرّ الحياة وظلال فكره في هذه المتاهات التي يهتدي فيها إنسان بعقله»(١٨).

اكتسي هذا الضرب من الاغتراب برداء وجودي علي مستوي شعره وشعوره، إذ تقوقع الشاعر العراقي علي ذاته وبدأ يتحدث عن ضياعه وقهره ويتسائل عن ذاتيته والغاية من الخلق.وفي ضوء هذا نكتشف طبيعة معاناته الوجودية التي تمثّل انهيار القيم الدينية في حضارة تتسم بالفراغ الروحي.

من نماذج هذا الاغتراب ما يقول:

تفكرتُ في كنه الحياة فلم أكن ... لأزدادَ إلاّ حيرة في تفكري
وكم بتُّ فيها أخبطُ الليلَ راميا ... إليها بلحظ الطارق المتنوّر
علي أنّني مهما تقدّمتُ نحوها ... رجعتُ رجوعَ الناكص المتقهقر(١٩)
من أينَ من أينَ يا ابتدائي ... ثمّ إلي أين يا انتهائي؟
أ من فناءٍ إلي الوجود ... ومن وجود إلي فناء؟
أم من وجود له اختفاءٌ ... إلي وجود بلا اختفاء؟
خرجتُ من ظلمة لأخري ... فما أمامي وما ورائي؟
ما زلتُ من حيرة بأمري ... معانق اليأس والرجاء
لأيّ أمرٍ ذه الليالي ... وتغربُ الشمسُ في مساء(٢٠)
من أين جئنا أم إلي أينَ قصدنا؟ ... وفي أيّ ليل من تشككنا نسري(٢١)

يتجلّي هذا النمط من الاغتراب عبر التساؤلات المكثّفة التي تحاول تفسير جوهر هذا الوجود وسبر أغواره مما يؤدّي إلي تعميق الاغتراب والشعور بالضياع في نفس الشاعر. نشأ الاغتراب الروحي لديه من خلال التناقضات والثنائيات المتضادة التي شاهدها طيلة الحياة في المجتمع حيث أدّي هذا الأمر إلي نشوء تجربة روحية تنمّ عن عذاب الروح والتساؤلات المريرة، ثمّ ما هدّد حياته من ضروب الظلم والجور، وعهود الاستبداد والهزائم من قبل الدول

والمتنفذين في الساحات السياسية التي ملأت النفوس بالخيبة والقنوط والتمزّق النفسي والضياع الذاتي، فضلًا عن فشله في تحقيق الآمال والطموحات مما جعل القنوط يجتاح نفسه ويطيح به في متاهات الغربة. انطلاقًا من هذا الموقف، من النقّاد من ذهب إلي أنّ هذا الأمر مما «زجّ به في هذا المضيق الوعر ولاسيما في هذا العصر الذي فتن فيه الناس ببعد الصيت وذيوع الشهرة، فكأنّ التشكيك في المعتقدات سلاحهم الذي صبوا به إلي هذه الغاية حتي يعدهم الناس في المفكرين وأولي الرأي»(٢٢). انشغل الشعراء والمفكرون في العصر الحديث بالقضايا الفلسفية الكثيرة التي استبدّت بتفكيرهم وأقلقت بالهم وراحوا يتساءلون عن الروح وحقائقها وعن مبدأ الوجود وغايته، وعن الخلود والفناء.يبدو أنّ جوّ الحرية في العالم الجديد والتعرف علي المذاهب الفلسفية الغربية خاصة الفلسفة الوجودية ساعدهم علي ذلك.

الذي لا شكّ فيه أنّ البلدان العربية والإسلامية في العصر الحديث تعرّفت علي العلوم والتكنولوجيا والمواقف الفكرية الواردة من الأدب الغربي، ومن ثمّ انفتحت أبواب العلم والثقافة بكل مصراعيها علي البلدان العربية وظهرت آفاق فكرية رحبة لم يكن عهد بها عند المجتمع العربي الحديث من قبل، وهذا الأمر بالنسبة إلي الأدب العربي الحديث بصورة عامة والأدب العراقي الحديث بصورة خاصة بمثابة صراع فكري وسياسي جديد.تأثر الرصافي من خلال هذا الجوّ الفكري الجديد بالإنتاجات الفكرية في الأدب الغربي وهذا مما أضفي علي فكره نمطاً من الغربة والانعزال خاصة عندما قام بالمقارنة بين المجتمع العربي والغربي وما يسودهما من القيم والمبادئ المتضاربة، «وقد أدّي هذا كله مع ما أحرزه الشاعر العربي من ثقافة واسعة رحيبة الآفاق، إلي أن أصبح أرهف إحساسًا وأشدّ وعياً بالأحداث التي تدور حوله وغدت رؤيته

لمشكلات حياته المادية والروحية أكثر عمقاً وحدّة، فتراءي في شعوره قدر الإنسان في هذه الحياة وصار شعره ذا بعد ورؤية إنسانية شاملة»(٢٣).

اشتدّ إحساسه بالعجز والإحباط وازدادت حيرته وقلقه وتفاقم غربته، وضاقت البيئة وفسدت مظاهر الحياة التي تثقله أعبائها وتدهمه بهمومها.هكذا توقّدت جذوة الوعي لدي الشاعر المغترب ونراه يتشبّث بالحياة خوفاً مما يترقبه بعدها إثر الشكوك والتساؤلات التي أحاطت به، فيصوّر نفسه محاطاً بتلك القوي المدّمرة والظواهر الصعبة علي الأفهام التي تكشف عن ذروة تأزّمه النفسي. الموت في رأيه هو الصراع العنيف بين الزمن ومأساته من جانب، وبين والإنسان وتطلعاته في الحياة من جانب آخر. فقادته قضية الموت إلي فكرة العدم في مرحلة الشباب.

نراه دائماً يحاول البحث عن التخلص من واقعه المليء بالتناقضات التي نجد بصماتها واضحة علي الصعيدينِ الذاتي الخاصّ والإنساني العامّ بحيث خلقت هذه الثنائيات المتضادة الناجمة عن الإيمان والشكّ بؤرة قلقه التي تتمحور حول مستقبل غامض وانتظار يغري بالتطلع، فينظر إلي الوجود من خلال غربته الروحية.تعدّ الحياة عند الشاعر اغترابًا مرحليا يسوقه نحو الفناء والعدم وهذا هو الغربة المؤبّدة وإذا كانت الحياة تكتظّ بمظاهر التعسف والجور والسخط فالموت أقسي منها. يتشبّث الشاعر بالحياة لا إيثارًا لها علي الموت والفناء، بل من خشية ما ينتظره فيما بعد من شك وحيرة.

لاحظنا أنّ الشاعر وجد نفسه محيطة بصنوف مختلفة من المتناقضات والثنائيات المتضادة التي يرأسها شعوره العميق باللاأدرية واللاجدوي، فيجد نفسه تحت الضغوط الطاحنة وتساوره الرغبة في الانفلات من هذا الواقع المرير.

الاغتراب السياسي

يجسّد شعر الرصافي صورة الشاعر المنفعل بقضايا الأمة الإسلامية والعربية وينمّ عن التفاعل الحميم مع معطيات الواقع الإنساني. من هنا يتّخذ شعره أداة لتعزيز قيم الرفض.فالأحداث التي اجتاجت العراق وعصفت بها وتغلغت في كيان الشاعر ووعيه هي التي خلقت لديه بصمات الاغتراب عن الواقع المعيش.إنّ الممعن في الشعر العراقي الحديث يجد أنّ في الأدب الحديث عدداً غير قليل من الشعراء العراقيين الذين بذلوا جهوداً قيمة في مجال الدفاع عن الوطن ونبذ الخلافات ورصّ الصفوف وإن اختلفت وسائلهم وتباينت مواقفهم الفكرية والسياسية، إلاّ أنّ اتجاههم السياسي يخدم مصلحة الأمّة.

نشأ الشعور بالاغتراب السياسي لدي الرصافي إثر التدهور العام الذي أصاب المجتمع العراقي في المستوي السياسي والصراع بين الحكام والأمراء من أجل العثور علي المطامع السياسية واتساع الرقعة.صار الجوّ الشعري العام لدي الشاعر قاتماً كاشفاً عن الواقع السياسي المؤلم وكل ما نلاحظ لدي الشاعر السياسي المغترب مظاهر جلية من البكاء والعويل والشكوي من التدهور والانحطاط والتخلف والغيظ من غفلة الشعب وسباته العميق والنعي علي الاستعمار الأجنبي ونهب الثروات والمصادر الطبيعية للبلد.

يتضح لنا من خلال شعره الثوريّ أنّ الشاعر أطبق عليه الخناق ولم يكن قادراً علي احتمال نفس مكبّلة بالقيود وأذاقته هذه الظروف التعسة صنوف الحرمان والعذاب.إذا أمعنا النظر في تلك الظروف التي عاشها المجتمع العراقي في هذه الفترة نري أنّ «العراق بولاياته الثلاث يتعثر بظلماته ويتخبط في وجوه الخانق المشبع بالظلم والإرهاب وقد انتشرت الرشوة واغتصاب الأموال من قبل الموظفين الذين اشتروا وظائفهم من الوالي ولم يكونوا من أهل الكفاية والنزاهة وأهملت المشاريع العمرانية وإن كانت تخصّ أهم مرافق الحياة

وأصبح العراق مرتعًا للفساد السياسي والاجتماعي»(٢٤). من هنا صارت الشعوب «آلة ذليلة يسيرها السلطان وأعوانه من الولاة وغيرهم أنّي شاؤوا وهي تدين بالولاء والطاعة، إذ فضلت الاستسلام علي النضال ولم تفكر في تبديل أو تغيير... ولهذا اختفت روح الثورة والرفض والنقد وغلبت روح التواكل والخضوع والاستسلام»(٢٥).

يتبين للقارئ عبر تدقيق النظر في الظروف السياسية السائدة زيف الحياة السياسية وعدم مصداقية الأنظمة القمعية المصادرة لحرّية الإنسان في المجتمع العراقي.من هنا يدرك اهتمام الشاعر ومعالجته للقضايا المصيرية التي تعمّ الشعب والوطن، ويري نفسه يعيش ويشعر بكل ما يعانيه الشعب المقهور.يشعر الشاعر المغترب بألم يعتصر نفسه ويتحسّر لمواطنيه الذين ذهبت مساعيهم أدراج الرياح في زحمة الأزمات الروحية والنفسية المختلفة واجتاحتهم وطأة الاحتلال والمناخ السياسي الضاغط ونهشة التخلّف والفقر المدقع.نراه في هذا المجال يقوم بالمقارنة بين الأنظمة السياسية في البلدان الغربية وما تسود المجتمع العراقي من الأنظمة الجائرة، ويجد أنّ المجتمع الغربي يتمتع بالعدالة وسيادة القيم الفاضلة، بينما انعدمت هذه المثل في وطنه. هذا مما جعله ينفر منهم ويشعر بالضياع وسطهم.نراه يبذل من أجل الوطن كل غال ورخيص، فصار الوطن مرحلة من مراحل نموّه الجسدي والعاطفي والنفسي والفكري.

كان للانقسام السياسي آثار واضحة علي نفسية الشاعر حيث تضاعف اغترابه وكره هذا الواقع السياسي الذي مهدّ أرضية مناسبة لظهور الخصومات والمناوشات والتطاحنات المريرة ونراه يتحسّر علي ضياع وحدة الشعب وتضامنه.أدّي هذا الانقسام إلي تكوين الفتن والنعرات الطائفية في الزمن الذي كان الشعب في أمسّ حاجة إلي الوحدة والانسجام وهذا مما يخدم

مصالح الاحتلال الأجنبي. وهذه التجربة القاسية مما زرع الشعور العميق بالاغتراب في كيانه.

إنّ الممن في شعر الرصافي يجد أنّ الشاعر يتحدث خلال شعره عن مظاهر الفقر والحرمان الذي طال الشعب العراقي وهذا يعدّ وجهًا آخر من اغترابه السياسي، ففي حين كان الاستعمار الأجنبي يعيش في الرفاهية ورغد العيش وسعة الحال، كان الشعب العراقي يعانون كافة مظاهر الفقر والتخلف وويلات الجوع والتشرّد.يتخطي الشاعر حدود الوطن المسلوب، فشارك المواطنين وكل من ينتمي إلي العالم العربي والإسلامي في الويلات والمصائب وما يلاقون من اضطهاد واستبداد الحكام.نراه يقول:

أحبّ الفتي أن يستقلّ بنفسه ... فيصبح في أفكاره مطلقًا حرًّا
وأكره منه أن يكون مقلّدًا ... فيحشر في الدنيا أسيرًا من الأسري
إذا كان في الأوطان للناس غايةٌ ... فحرية الأفكار غايتها الكبري
فأوطانكم لن تستقلَّ سياسةً ... إذا أنتم لم تستقلّوا بها فكرا
إذا لم يعش حرًّا بموطنه الفتي ... فسمٌّ الفتي ميتًا وموطنه قبرا
أ حرّيتي إنّي اتخذتكِ قبلةً ... أوجّه وجهي كل يوم لها عشرا
أنا بالحكومة والسياسة أعرفُ ... أ ألامُ في تفنيدها وأُعنَّفُ
سأقولُ فيها ما أقولُ ولم أخف ... من أن يقولوا: شاعر متطرّف
هذي حكومتنا وكلّ شموخها ... كذبٌ، وكلّ صنيعها متكلَّف
غشّت مظاهرها ومُوِّه وجهُها ... فجميع ما فيها بَهارجُ زُيِّف
وجهان فيها باطنٌ مستتر ... للأجنبيِّ وظاهر متكشّف
والباطلُ المستورُ فيه تحكم ... والظاهر المكشوف فيه تصلُّف(٢٦)

عبر الشاعر عن غربته وعن مدي حاجته الملحّة إلي الاستقرار السياسي مما دفعه إلي التمرد والاغتراب.الشاعر علي ثقة بأنّ المجتمع تقاعس عن الأسس والمعتقدات وعجز عن مواجهة الأعداء الذين شنّوا عليه هجمات عنيفة في عقر داره، فمن خلال هذه الهزيمة في الجانب القيمي والاجتماعي نشأ نمط آخر من الهزيمة والانكسار الذي تبلور في مجال السياسة.

الاغتراب عن القضايا الاقتصادية

لم يقتصر الاستبداد والاستعمار بالسيطرة علي البلد والتحكم في مسيره واستتراف الخيرات ونهب الثروات جاعلًا من أفراده عبيدًا ترهقهم الذلة والتشرد، وإنما سعي بكل الطاقات والإمكانيات في سبيل انتزاع الشعب العراقي من انتمائه العربي والإسلامي وتجريده من الهوية والثقافة الإسلامية.في زحمة هذه الأحداث الواقعة بالمجتمع العراقي، كان التخلف الاقتصادي ونهب الثروات من الوسائل الأخري التي اتخذها الاستعمار من أجل تنمية الشعور بالعجز والفتور في كيان الشعب العراقي، الأمر الذي خلق لدي الشاعر إحساسًا عميقًا بالتيه والضياع والانتماء الاقتصادي.

إنّ المتبع للظروف الاقتصادية المحيطة بالمجتمع العراقي يجد أنّ الفقر والحرمان وتعسف المحتلين والحكام المستبدة من أهمّ البواعث والأسباب التي ساقته مساق التعبير عن الاغتراب الاقتصادي، كأني به يشعر ما لاقي الناس من الفقر المدقع والبؤس والشقاء.مما يجدر بالذكر أنّ الرصافي يعدّ «واحدًا من أبناء الطبقة المكدودة التي أرهقتها الأيام وعاني في حياته من الأمرين فاقة وحرمان منذ صغره، ولازمه الفقر حتي أيامه الأخيرة ووفاته»(٢٧). بناء علي هذا، فإنّ حضور القضايا الاقتصادية في تجربه الاغتراب لدي الشاعر كان حافزًا رئيسًا علي الانتقام لهذه الظاهرة المؤلمة.

لا مشادة أنّ الواقع الاقتصادي المؤلم من أهمّ الهواجس التي شغلت بال الشاعر، ومن أجل ذلك أقبل الشاعر علي إيراد القصص الشعرية التي تنمّ بصورة واضحة عن أهم المواصفات والسمات التي تعرف بها المجتمع العراقي آنذاك.من أهمّ القصائد الشعرية التي جاءت قصةً شعريةً: «الفقر والسقام»، «المطلّقة»، «اليتيم في العيد»، «اليتيم المخدوع» و«أمّ اليتيم» اتخذ الشاعر هذه القصص لافتة عنوانية لمقطوعاته الشعرية للتعبير عن الجدال والصراع والتناقضات التي يعيشها لتجسيد الرؤية وتشخيص الواقع والكشف عن العذاب الإنساني والمكابدة الفردية التي صارت مكابدة إنسانية جرحت روح الإنسان المعاصر. لم تظهر هذه العناوين ضمن القصائد عشوائية ودون عفوية، بل اختارها الشاعر استجابة لدوافع داخلية وضغوط نفسية تفجّر هذه العناوين.

حاول الشاعر من خلال توظيف هذه القصص الشعرية تحقيق العدالة في جميع المستويات خاصة الاقتصادية لكافة الشرائح والفئات. كان الاغتراب الاقتصادي لدي الشاعر ناتجًا عن إحساسه العميق بمقاساة هذا الشعب المظلوم والمقهور، فاتخذ القصة خير أداة لتمثيل هذه المكابدة. ليست هذه القصص الشعرية سوي «صرخات للسلطات الحاكمة ونقد لسياساتها المستبدة ...ثمّ هي بالتالي هزات للراقدين في قيود الخمول»(٢٨).

إنّ هذه التخلف المادي والاقتصادي كبّل المجتمع العراقي ونهض به من الرقي وهذا التخلف مما جعل الغرب يسيطر علي المجتمع ويديره كيفما شاء. ولهذا الأمر سبب بسيط وهو أنّ المجتمع لم يكن يديره أبناء الوطن.

يتبين لنا من خلال ديوانه الشعري أنّ الشاعر لم يغفل لحظة عما ألمّ بالمجتمع من الفقر والحرمان وكثرة الأيتام الذين أصيبوا بفقدان الأبوين في الحروب الطاحنة التي نشبها الاحتلال الأجنبي.من هنا نستطيع أن نعتبره شاعراً

اجتماعيا ناضل من أجل التحرير والتوازن بين الأجناس المختلفة في المجتمع. والشواهد علي شعره الاجتماعي «لا تكاد تحصر إنّها صورة عن جوانبه الإنسانية فهو لايعيش لنفسه، بل يعيش لمواطنيه بل للإنسانية كلها بنفس تنطوي علي كثير من المروءة والحنان والشفقة»(٢٩).

من نماذج قوله ما ورد:

وللفقر بين الناس وجه تبينت ... به حسنات المرء وهي ذنوب
لقد أحجم المثري فسمّوه حازمًا ... وأحجم ذو فقر فقيل هيوب
وإن تواضع معدم فهو صاغر ... وإن يتواضع ذو الغني فنجيب
وذو العُدم ثرثار بكثر كلامه ... وذوالوُجد منطيقٌ به و لبيبُ(٣٠)
أري كلّ ذي فقر لدي كل ذي ... أجيرًا له مستخدمًا في عقاره
ولم يعطه إلا اليسير وإنما ... علي كدِّه قامت صروح يساره
ويلبس من تذليله العز ضافيا ... وينظره شزرًا بعين احتقاره
يشدّ الغني أزر الفتي في حياته ... وما الفقر إلاّ مكسر في فَقاره(٣١)
أ فَسيدٌ من عاش وهو لغيره ... في حاجة بل ذاك عيش مسودِ
أري أغنياء الناس كالعُمي لم يروا ... شقاء بني غبراءَ من كل بائس
كأنَّ الغني و الفقر نور و حندسٌ ... ولم يرَ من في النور من في الحنادس(٣٢)

تصور لنا هذه الأسطر الشعرية ما أصاب المجتمع من التفاوت الطبقي واستغلال الشعب وما يتمع به الجياع من مرارة وحرمان والأغنياء المثرين من رغد العيش والنعم وهؤلاء هم الذين يحوّلون الفقراء إلي أداة تساعدهم في تحقيق الأمنيات والطموحات المادية.نراه يندهش عند هذه المتناقضات السلبية ويتساءل عن السبب ونوايا فاعليها الذين حمّلوا الناس حالة مأساوية، فتزداد وتتصاعد نيران غربته وتتعالي صرخات آلامه.هذه النماذج الشعرية التي

رصدها الشاعر من صور البؤس والفقر المتناثرة ضمن الظواهر الاجتماعية والطبيعية تعبّر عن غربته الأليمة وغربة الإنسان العراقي فوق أرضه وتعرض المآسي التي لحقت بالشعب العراقي.

يستشفّ من خلال الأسطر الشعرية سخط الشاعر علي الواقع والنقمة علي الحكام والأنظمة القامعة وصار التغيير هاجسه ومصدر اغترابه الدائم والاغتراب ههنا فيض عاطفي وممارسة عامة من أجل التمرد علي الواقع الاقتصادي المؤلم والمؤسف وبهذا أصبح الاغتراب الاقتصادي جزءاً من مواجهة السلطة القائمة.من ثمّ نفس الشاعر لاتطاوعه علي قبول هذه المظاهر المخزية علي أن يتكيف مع هذا الواقع المتردي.

لامس الشاعر في الأسطر السابقة الأيتام والفقراء وذوي الحاجات الذين لا حيلة لهم في الحياة وعبّر عن اغترابه بلغة استجابت للعاطفة والمناخ النفسي. من ثمّ لم يكن هذا النمط من الاغتراب لديه ضرباً من ضروب الواقعية فقط، بل كان شعوراً مفعماً بألم الضياع والقلق والغيرة علي مصير المجتمع العراقي والسخط علي الحكام الطغاة. ينطوي الاغتراب الاقتصادي لدي الشاعر علي بعيدين نفسي واجتماعي وذلك بسبب الانشطار في الذات وعدم التماهي والتفاعل مع الواقع. تعب تلك الأبيات السابقة بصورة واضحة عن اغترابه عن أبناء المجتمع من أصحاب الفاقة ونجد من خلالها نمطًا من الصراع المحتدم بين الطبقتين: الأغنياء الذين تمكنوا من العثور علي كافة إمكانيات المجتمع والفقراء الذين حرموا كلّ شئ، والكلام ههنا يكتظّ بالرفض والسخط والثورة ونقمة واحتقار.من هنا نشأ الاغتراب لديه إثر وجود المسافة بين ما كان فيه وبين ما عاشه. يبثّ مشاعره وأحاسيسه الدفينة ويحاسب نفسه علي ما فرط وينتابه القلق، فالاغتراب تجسيد لمعاناة الشاعر التي تحول بينه وبين الواقع والشعور بالغربة ناتج عن ثوريته التي صارت وليدة إحساسه بالغربة. كما يتبين لنا من خلال ديوانه الشعري أنّ اغترابه في كافة المستويات كان واقعيا صورّ خلاله القيم الوطنية والإنسانية التي تمثّل انتمائه الواعي إثر معايشته

لقضايا الوطن وبذلك نري تمازجًا وتعالقًا واضحًا بين الشعور العاطفي في السياسة والاجتماع.

الاغتراب عن المجد الضائع وسالف الأيام

حينما تدغدغ ذكريات الأيام الماضية والصِّبا وجدان الشاعر المغترب، تجود قريحته الشعرية بالشعر المفعم بالحنين والعاطفة الصادقة.هذا النمط من الاغتراب يمثّل تلك ردّة فعل أحدثتها تجربة الاغتراب القاسي التي منعته من تحقيق الآمال وبلوغ الغايات المنشودة في العالم الجديد.

إنّ اهتمام الشاعر بالقضايا العربية والقومية والتي سادتها منذ قرون متمادية مما أدّتها إلي الرقي والتنمية العلمية والثقافية، آلت به إلي التحسر علي المجد الضائع والأيام المضيئة السالفة التي ذرف الدموع الساخنة من أجلها.وهي التي تجعله يتواصل مع التراث الأثيل ليتمكن الشاعر من استيعاب الواقع المحيط به خاصة في وضعه المغترب وحالته المأساوية.حاول الشاعر عبر التعبير عن المجد الضائع إيصال الماضي العربي والإسلامي بالأيام الحافلة بالحضارة والازدهار بالحاضر العابس. نجده ههنا يتألّم ويتحسّر علي هذا الحاضر الذي لا يمثّل الماضي ولا يمجده. انطلاقًا من هذا الموقف، اتخذ الشاعر المغترب الحنين إلي الماضي وسالف الأيام «محاولة للانعتاق من وطأة الحاضر، وهو غربة عن الواقع الحاضر، فحين يشعر المرء أنّ حياته قد قست عليه فإنّه يجد متنفسًا بالهروب منها إلي الماضي»(٣٣). نستطيع أن نقول إنّ اللجوء إلي استدعاء الماضي وأيام الشباب واستحضار الأمجاد من الطرق التعويضية التي حاول الشاعر من خلالها قهر الاغتراب وانكساره.

صار الواقع المهزوم مصدراً للقنوط والانكسار،فإنّ شعر الغربة والتحرّق إلي الأيام الماضية هو شعر التمزق الوجداني الذي يغلب عليه طابع الحسرة والألم ويتميز في معظمها بالصدق والواقعية.

من نماذج قوله ما ورد:

يـــا رعـــي الله زمانًا لـو يـدوم كـــان للـــدّهر كأيـــام الصِّـــبا
أشـرقت فيـه مـن العلـم النجـوم ظـنَّ كـلُّ النـاس أن لـن تغربـا
يـا عهـودَ العلـم مـا شـئت أنـدبي يـا عيـون المجـد مـا شـئتِ اذرفي
آه لـــو يرجـــع ماضـــي الحُقُـــب آه لـــو عـــاد زمـــان الشـــرف(٣٤)
عهـد الصِّـبا سـقيا لأيـام الصـبا أشـــبهُ شـــيء بـــأزاهير الربـــا
إنّ الصـــبا كـــالورد في نضـــرته وعُمـــره واللـــون منـــه والشّـــذا
واهًـا علـي شـرخ الشـباب المشـتهي خلّـــف ذكـــراه بقلـــبي ومضـــي
لقـــد ذوي غصـــن حيـــاتي بعـــده وكـان ريـان التصـابي والمـني(٣٥)
آهًـا فآهًـا علـي مـا كـان مـن شـرف لليعـــربيين قـــد ألـــوي بـــه القِـــدمُ
أيـام كـانوا وشمـلُ المجـد مجتمـعُ إذا الخطـوبُ بحبـل البغـي تُخـترمُ
كـانوا أجـلّ الـوري عـزًّا ومقـدرة حـــتي تبـــدلت الأخـــلاق والشـــيمُ
جـــار الزمـــان علـــيهم في تقلّبـــه بـه انـبرت أعظـم مـنهم وجـفّ دم
دبّ التبـاغض في أحشـاءهم مرضًـا فأصـــبح الـــذلّ يمشـــي بـــين

يلاحظ عبر هذه الأسطر الشعرية أنّ الشاعر ضمّن شعره الاغتراب عن المجد الضائع وما ألمّ به من فتور وضعف إثر الشيخوخة واستذكار الشباب بما فيه من القوة والنضارة التي افتقدها في زمن الشيخوخة، فحنّ إليها وعمد إلي طمس حاضره ذات بعدينِ (الواقع المحيط به لما يتميز بالتخلف والحالة المأساوية، والشيخوخة) وتحويله إلي ما يمكنه من التحدي لسلطة الزمان ومخالفته.أصبحت الأسطر الشعرية قائمة علي جملة من المبادئ التي تتمثل في ظاهرة التضاد التي ظهرت بين العالم الواقع والعالم المنشود الذي تصبو الذات الشاعرة إلي تحقيقه.

يحاول الشاعر الخلاص من قهر الزمان رغم استحالة الرجوع إلي الشباب وماضي الأيام المشرقة، مع أنّه لم ييأس من تحقيق هذه الأمنية المنشودة ونراه يلجأ إلي تجميل الشباب وإضفاء الرونق والجمال عليه واستذكار الماضي الغنيّ بالسعادة والصفاء. يعمد إلي المقارنة بين أمرين مهمّين: المجد الأثيل الذي تمتّعت به الأمة العربية والإسلامية في سالف الأيام، وفقدان الشباب.أراد من خلال هذه المقارنة التحسّر علي ما فاته من الأيام المضيئة ليكشف عن المفارقة وسعة تجربته الشخصية والذاتية.بناء علي هذا، ينمّ هذا الاغتراب عن التوتر والصراع المحتدم الذي يعيشه الشاعر بين الماضي والحاضر،فيرمز من خلاله إلي أحواله التعسة حتي آل به التأمّل العميق إلي أن يجد في الغربة عنوانًا للحياة المثلي والسعيدة. لم يكن استحضار هذه الصور الضائعة واستبطانها إلاّ محاولة منه للهروب من الحاضر القاسي إلي ما كان يتمتع به من بساطة وهدوء وسعادة في الأزمنة الغابرة واستدعاء لذلك الشعور الخالي من وعي الزمن وقلق الفناء المصاحب له.

تبين لنا من خلال الأسطر الشعرية السابقة أنّ الشاعر يعمد إلي وضع الحاضر مقابل الماضي مع أنّه يتحدّث عن الحاضر بلغة الماضي.فيعجز عن تحقيق هذا الطموح وبالتالي تتعقد حالته النفسية. حاول الشاعر من خلال توظيف هذه الثنائية التعبير عن عالمه النفسي وعدّها جسرًا لإيصال الحاضر بالماضي للإفصاح عن معاناة الذات وانشطارها بين الماضي والحاضر الذي يعتبر ضربًا من الهروب من اليأس والفناء إلي الحيوية والانطلاق.من هنا يستلهم بعض الشخصيات التاريخية والقبائل العربية (يعرب بن قحطان) ويتخذها رمزًا للتمرد والشموخ والاعتزاز بحقوق الشعب العراقي في الحياة والوجود معبّرًا عن أزمة وجودية وإنسانية خاضها هؤلاء الشخصيات.تماثلت تجربة الشاعر مع هؤلاء الأبطال والشخصيات التراثية وكانت هذه التجربة

ناتجة عن نفسية موزّعة بين الماضي واستدعاء الذكريات بين مصائب الحاضر والتحسّر علي الواقع المؤلم.

نستشفّ عبر الأسطر الشعرية أنّ الشاعر يحاول تغييب النفس عن مشهد الحاضر ويتماهي مع الماضي من أجل تناسي تلك الحالة القطيعة التي خلقها تطور الأحداث ووطأة الزمن المثقلة.إنّ ما أصاب المجتمع العراقي من النوائب والأزمات التي طحنته بعد شموخه وعزّه مما أثر في نفسية الشاعر وخلّف في كيانه بصمات الشعور بالاغتراب عن ماضي الأيام والتحسّر علي تلك الحضارة والثقافة الراقية التي تمتعّت به الأمة الإسلامية في أيامها السالفة.هذا الاندفاع والانطلاق نحو الطموحات الضائعة يبلور رغبته في الخلاص من دائرة اللحظة الحاضرة والنجاة من ضغطها وعبئها والسعي من أجل خلق زمن جديد تتمثّل فيه اللحظة الماضية.كأنّه يلغي حاضره من الوجود ويتّخذ من سالف الأيام والشباب مطية له عبر الرحلة ليتنشّق بها عبير الماضي، ولا يبدو متصالحًا مع الدهر وكأنّ الدهر صار رمزًا عنده للعدو الذي يترصّده.لذا يعمد الرصافي عبر المقطوعات إلي المساءلة في ذهول واستغراب بغية إعادة التوازن العاطفي والتعويض عن نكسات الحاضر والقضاء علي تفكك وانشطار الذات المعذّبة برؤية الثنائيات المتضادة بعد المعاناة ومكابدة الآلام.

النتيجة

تمكن الإشارة إلي النتائج بالآتي:

١- يشتمل مصطلح الاغتراب علي دلالات مختلفة وتطوّر إثر تطور الزمن والثقافة، ولكنه بصورة عامة يمثّل معني الانفصال، سواء انفصال الإنسان عن الآخرين أو عن الذات. بدأت هذه الظاهرة في الأدب الحديث تأخذ بعدًا فكريا وفلسفيًا أكثر تعقيدًا وتوسّعت وتعددت مجالاتها وأنواعها حيث أصبحت غرضًا شعريا يعبّر عن تجربة الشاعر الشعرية والشعورية.

٢- أحسّ الشاعر العراقي معني الاغتراب بشغاف قلبه واتخذ اللغة الشعرية أداة طيعة للتعبير عنه ويتحدّد هذا الاغتراب بعلاقة التأزم بين الشاعر والكون المحيط به، فعايش الشاعر تلك الأحداث والوقائع المريرة التي انتابت المجتمع العراقي وقاسي ما قاسي أبناء المجتمع.

٣- تبين لنا من خلال البحث أنّ الاحتلال والاستعمار الأجنبي كان باعثًا رئيسًا لنشوء الاغتراب لدي الشاعر، ثم ما خلّفه من ظلم وقهر واستبداد علي الشعب العراقي لاقتلاع الفرد من جذوره الإسلامية والعربية، فأثّر ذلك علي توازنهم النفسي والروحي وعبّروا عن الضياع والقنوط.فضلًا عن ذلك، التدهور في الظروف الاقتصادية والاجتماعية والانهيار الخلقي والديني.

٤- تميزت اللغة الشعرية لدي الشاعر بالبساطة، الوضوح، التقرير والصدق والحيوية بعيدة عن التكلف، التعقيد والصنعة المفتعلة.

٥- تشعّب الاغتراب لدي الشاعر حسب تعلّقه بالوطن، فهناك صلة وثيقة بين الشاعر والقضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. نلاحظ خلال هذه الضروب المختلفة من الاغتراب تلك التساؤلات الروحية والنفسية المكثّفة التي تمثّل خير تمثيل شعوره بالعدم والضياع واستكناه الوجود.

٦- ارتبطت تجربة الاغتراب لدي الشاعر ببعض الأفكار الرومانسية الغربية المتمثّلة في الحنين الجارف إلي الماضي وسالف الأيام والتراث التليد وتذكر أيام العزّة والسعادة وهو نزوع تعويضي عن الواقع المحيط به. فجاءت الرومانسية ناتجة عن واقع مفعم بالمتناقضات والثنائيات.إضافة إلي ذلك، ارتبطت هذه التجربة بالأفكار الواقعية وأخذت منهجًا اجتماعيا تمثّل في تصوير المشاكل والمعضلات الاجتماعية التي كبّلت المجتمع العراقي.من ثمّ

كان اغترابه صرخة عنيفة وحزنًا عميقًا في وجه الظلم والتعسف، البؤس الاجتماعي، والتسلط الاستغلالي.

٧- كانت الغربة والحنين لدي الشاعر هو الطريق الوحيد للتعويض عمّا شعر به من ضياع وعدم ونقص، ولكنّه لم يساعده علي تحقيق الطموحات والآمال، بل زاد من حدّة الغربة وعدم التوازن والتأقلم.

Abstract

The present paper deals with the subject of nostalgia, its roots and different manifestations in the poetry of the Iraqi contemporary poet, Marouf Rosafi. Relying on the descriptive-analytic method and the contemporary literary resources especially his complete poetical work, the author has analyzed these different manifestations. Scrutinizing the complete poetical work of this poet, the author has reach to different forms of nostalgia such as social, place, spiritual, political, economic nostalgias which are all emerged from the crises afflicting Iraq. Finally, the paper came to this conclusion that occupying homeland, public disorder, sedition and chaos are among the reasons which have had a great effect in formation of nostalgia; therefore, his odes are indicative of alienation and destruction.

Keywords: Nostalgia, Contemporary Poetry of Iraq, Occupation, Ruin and destruction.

هوامش البحث

١- امريء القيس،١٩٨٩م،٣٥٦

٢-ابن منظور،د.ت، مادة غرب.

٣- أنيس وآخرون، د.ت،مادة غرب.

٤- جمعة، ٢٠١١م، ٢٤

٥- الركابي، ١٤٣٠، ٨٥

٦- بطي، ١٩٢٣م، ٦٩

٧- بقاعي، ١٩٩٤م،٢٥

٨- سلامي،٢٠٠٠م،١٥١
٩- عزالدين،١٩٦٠م،١٩٩
١٠- الرصافي،١٩٥٧م، ١٤٥
١١- نفسه، ١٧٦
١٢- نفسه، ٤٥٦
١٣- طبانة، ١٩٤٧م، ١٢٥
١٤- المصدر نفسه، ٤٩
١٥- الرصافي، السابق، ٤٤-٤٣-٤٢
١٦- إحسان، ١٩٧٨م، ٢٠١
١٧- كاميليا، ٢٠٠٨م، ١٢٩
١٨- غنيمي هلال، ١٩٨٢م، ٣٩٢
١٩- الرصافي، السابق، ٢٩٩
٢٠- نفسه، ١٣
٢١- نفسه، ١٨٦
٢٢- طبانة، السابق، ٥٥
٢٣- مورية، ٢٠٠٣م، ٣١٩
٢٤- قاسم ناصر، ٢٠٠٤م،٩٥
٢٥- عزالدين،١٩٧٣م، ٣٢
٢٦- الرصافي، السابق، ٤٦١- ٤٦٠
٢٧- حسن علي، د.ت، ٢٥٠. أنظر: طبانة، السابق،٥٠
٢٨- بطي، السابق، ١٤٥
٢٩- قبش، د.ت، ٤٠٤
٣٠- الرصافي، السابق، ٥
٣١- نفسه، ٣٧
٣٢- نفسه، ٥١٣
٣٣- محجوب، ١٩٨٠م، ٨٨
٣٤- الرصافي، السابق، ٦٧-٦٦
٣٥- نفسه، ٢٠٩- ٢٠٨

٣٦- نفسه، ٤٠١-٤٠٠

قائمة المصادر والمراجع

- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت.
- أنيس، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، إسطنبول، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
- امريء القيس، حجر بن حارث،الديوان، تحقيق حنا الفاخوري،ط١، بيروت، دار الجيل، ١٩٨٩م.
- إحسان، عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٧٨م.
- بطي، رفائيل، الأدب العصري في العراق العربي، القاهرة، المطبعة السلفية بمصر، ١٩٢٣م.
- بقاعي، إيمان يوسف، معروف الرصافي نار أم كلم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م.
- حسن علي،محمد، فن الوصف وتطوره في الشعر العراقي الحديث (١٩٠٠م-١٨٢٥م)، بغداد، دار الشؤون الثقافية، د.ت.
- الرصافي، معروف، ديوان الرصافي، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٥٧م.
- سلامي،سميرة،الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري،ط١، دمشق،دار الينابيع، ٢٠٠٠م.
- طبانة، بدوي أحمد، معروف الرصافي دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية، بغداد، مطبعة السعادة، ١٩٤٧م.
- عزالدين، يوسف، الشّعر العراقيّ الحديث و أثر التّيّارات السّياسيّة و الاجتماعيّة فيه، مصر، دار المعارف، ١٩٦٠م.
- --------، في الأدب العربي الحديث بحوث ومقالات،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.
- غنيمي هلال، محمد، النقد الأدبي الحديث، ط١، بيروت، دار العودة، ١٩٨٢م.
- قبش، أحمد، تاريخ الشعر العربي الحديث، بيروت، دار الجيل، د.ت.

- قاسم ناصر، بتول، تطور الفكر النقدي الأدبي في العراق منذ نشأته في العصر الحديث إلي الحرب العالمية الثانية دراسة في ضوء المنهج الجدلي لهيجل، ط١، بغداد، أسعد، ٢٠٠٤م.
- كاميليا،عبدالفتاح، إشكالية الوجود الإنساني، الإسكندرية، دار المطبوعات الجامعية، ٢٠٠٨م.
- محجوب، فاطمة، قضية الزمن في الشعر العربي، ط١، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠م.
- موريه، س، الشعر العربي الحديث (١٩٧٠م تا ١٨٠٠)، ترجمة شفيع السيد و سعد مصلوح، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م.

البحوث المنشورة

- جمعة، حسين، «الاغتراب في حياة المعري وأدبه»، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٧، العدد الأول- الثاني، ٢٠١١م.
- الركابي، فليح كريم خضير، «الاغتراب في شعر المتنبي»، مجلة المورد، المجلد ٣٦، العدد٢، العراق، وزارة الإعلام، ١٤٣٠.